احتفاءا بالأستاذ سالم يفوت

محمد أبطوي
جامعة محمد الخامس أكدال، كلية الآداب، شعبة الفلسفة

نص الكلمة التي ألقيتُها في اليوم الدراسي المنظم بكلية الآداب بالرباط يوم 30 دجنبر 2011 لتكريم الأستاذ سالم يفوت

يسعدني أن أشارك في هذا اللقاء الفكري للاحتفاء بالأستاذ الدكتور سالم يفوت. وأحيي في البداية زميلي وصديقي كمال عبد اللطيف الذي بادر إلى تنظيم هذا اليوم الدراسي لتكريم زميلنا وأستاذنا بالكلية التي شهدت مساهمته على أكثر من صعيد خلال أكثر من ثلاثين سنة.

عرفتُ الأستاذ يفوت منذ سنوات عديدة تربو على العقدين بعدما التحقتُ بهيئة التدريس والبحث بكلية الآداب بفاس في بداية التسعينات. وبحكم تخصصي في تاريخ وفلسفة العلوم، سرعان ما توطدت أواصر التعاون بيننا، حيث أنني كنت على اطلاع على أبحاثه ومنشوراته في هذا المجال ونهلتُ منها كما نهل غيري قبل أن أعرفه بصفة مباشرة. وأذكرُ أنني ساهمت بجانب الأستاذ يفوت وزملاء آخرون في اللقاءات العلمية التي أشرف الأستاذ يفوت على انطلاقتها بمراكش والتي أثمرت كتبا عديدة نشرتها كلية الآداب بالرباط منذ سنة 1996. ففي هذه المؤلفات نشرتُ

تحت إشراف الأستاذ يفوت مجموعة من المقالات حول تاريخ العلوم الحديثة وحول العلوم العربية والإسلامية كانت من بين أول مؤلفاتي المنشورة.

لذلك عندما قررت تسجيل دكتوراه الدولة بعد تردد مرده الى أنني سبق لي الحصول على دكتوراه من جامعة السوربون، قررت منذ البداية أن أحضّر هذا البحث الهام تحت إشراف الأستاذ يفوت في موضوع اشتغلت عليه بمعهد ماكس بلانك ببرلين لسنوات طويلة ويتعلق بالتقليد العربي في علم الأثقال وهو أحد فروع الميكانيكا النظرية والتطبيقية في العصر الوسيط. وكعادته، قبِل الأستاذ الكريم توجيه هذا البحث وما زال يتابع معي هذا المسار إلى أن نصل به إلى نهايته المأمولة قريبا.

كما أنني لا أنسى الدور الحاسم والمشرّف الذي لعبه الأستاذ يفوت في التحاقي بكلية الآداب بالرباط سنة 2004. فقد وافق على طلبي كرئيس لشعبة الفلسفة وساندني بما استطاع ليسهل لي الأمر. لكل هذه الأسباب وغيرها، أعبر اليوم عن شكري وتقديري للأستاذ يفوت.

ما سبق مجرد غيض من فيض عن الأيادي البيضاء للأستاذ يفوت علي كأستاذ باحث. فقد أغنتني صداقة وزمالة الأستاذ يفوت، بعدما خبرتُه وعاشرتُه سنوات عديدة ووجدت فيه، كما يشهد على ذلك غيري ممن عرفوه عن قرب، الإنسان المتواضع والأستاذ الناصح والباحث المجد والرجل الرقيق صاحب النكتة حينما ينفتح مجال السمر. ولا أغفل عن الإشادة هنا بخصال الأستاذ يفوت كباحث جاد، يقرأ بنهم وبمختلف اللغات ويترجم حين يستهويه نص بإحدى اللغات الأجنبية، والمؤلف الصبور الذي ينقّب ويستكشف ليكتب المقالات والكتب في مجالات صعبة قل من يقدر على شق طريق طويل فيها.

فقد تميز المسار العلمي للأستاذ يفوت بوحدة عزّ نظيرها وتمركزت معالمها الأساسية في شبه التزام بفلسفة وتاريخ العلوم، وهو ميدان بحث شاق يتطلب صبرا لا يكلّ ويقتضي مجموعة من المهارات قلّ أن تجتمع لباحث واحد. وتميزت مساهمات الأستاذ يفوت في هذا الباب بجمعه بين الاهتمام بالعلوم الغربية الحديثة والمعاصرة وبالعلوم العربية، بحثا وتنظيرا. كما أنه دأب على تطعيم البحث في تاريخ العلوم برؤية إبيستيمولوجية من خلال الجمع بين البحث التاريخي والفلسفي في اهتمامه بالعلم.

ومن الأمثلة على ذلك منشوراته المتأخرة التي أقتبسُ منها بعض المعالم الدالة. فقد أشرف الأستاذ يفوت على نشر ثلاث كتب جماعية أصدرتها كلية الآداب بالرباط وتدل مواضيعها على ارتباط التنظير الإبيستيمولوجي بالبحث التاريخي. وهذه الكتب هي: "كيف يؤرخ للعلم؟" (1996)، و"التفسير والتأويل في العلم" (1997) و" مفهوم التقدم في العلم" (2004).

كما يبدو هذا الجمع بين مفاهيم فلسفة العلوم ومنهجية البحث التاريخي في سلسلة مقالات للأستاذ يفوت نذكر منها مقالته الصادرة سنة 2002 في كتاب حول "المحلية والكونية في العلم" بصدد العائق الإبيستيمولوجي والمعقولية. والمقالة التي نشرها سنة 2003 في الكتاب الجماعي "التقليد والتجديد في الفكر العلمي" حول وجهة نظر توماس كون في التقليد والابتكار في العلم. ومقالته الأخرى الصادرة في كتاب أصدرته كلية الآداب بالرباط سنة 2004 حول المكونات الفكرية لفيزياء إينشتاين النسبية. في كل هذه المقالات يستخدم الأستاذ يفوت نتائج آخر منتجات التفكير الابيستيمولوجي، التي يأخذها من مصادرها الأصلية بالفرنسية والإنجليزية كما تدل على ذلك هوامش هذه المقالات وجهازها البيبليوغرافي.

ولا يكتفي الأستاذ يفوت بعرض النظريات والمفاهيم الإبيستيمولوجية بصفة مختصرة ومركزة فيها الكثير من الفائدة لمن لا يتوفر على أدوات البحث في فلسفة العلوم، بل إنه يشحذها بغرض توظيفها في أبحاث دقيقة في تاريخ العلوم. ولعل من المناسب الإشارة هنا إلى أن أهم أبحاث الأستاذ يفوت في ميدان تاريخ العلوم تمحورت حول العلوم العربية الكلاسيكية، وبالأخص الرياضيات والفلك والفيزياء، خاصة في التقليد العلمي للغرب الإسلامي الوسيط.

ونشير في هذا المضمار إلى الأبحاث الرائدة التي نشرها الأستاذ يفوت منذ بداية التسعينات حول إسهام مفكري المغرب والأندلس في تكوين علم الفلك الحديث. ففي سنة 1992 كتب الأستاذ يفوت حول هذا الموضوع في مجلة "الثقافة المغربية" التي أصدرت وزارة الثقافة بعض أعدادها قبل أن تختفي. غير أن اهتمام سالم يفوت بالموضوع لم يتوقف، حيث عاد إليه في مقالة حول "ابن باجة وعلم الفلك البطلميوسي" نشرها في الكتاب الجماعي "دراسات في تاريخ العلوم والإبستيمولوجيا" الصادر عن كلية الآداب بالرباط سنة 1996. وفي نفس الفترة عرض مجموع استدلالاته والنصوص التي تسندها في كتيب صغير الحجم لكنه كبير الفائدة، وهو كتاب "نحن والعلم: دراسات في تاريخ علم الفلك بالغرب الإسلامي" الذي نشرته دار الطليعة ببيروت في 1995.

في السنوات اللاحقة لم يتوقف الأستاذ يفوت عن البحث والتنقيب في التراث العلمي للغرب الإسلامي. فقد نقل اهتمامه في بداية الألفية الجديدة إلى مخطوط أصلي لم ينشر بعد للرياضي المغربي إبن البنا المراكشي الذي توفي عام 1321. ففي كتاب "العلم والفكر العلمي بالغرب الاسلامي في العصر الوسيط" الصادر بالرباط في 2001، نجد مقالة للأستاذ يفوت مخصصة لقراءة رسالة "المدخل إلى صناعة أحكام

النجوم" لإبن البنا. تبدأ المقالة بتحليل الوضع الابيستيمولوجي لعلم التنجيم (أو "أحكام النجوم")، هذا الفرع التطبيقي الذي صاحب دائما علم الفلك في تاريخه، ثم تستعرض محتويات رسالة إبن البنا السالفة الذكر وتبين مرماها ومكانتها ضمن المؤلفات المماثلة في الغرب الإسلامي.

وفي كتاب "الاتجاهات الكلامية في الغرب الإسلامي" الذي رأى النور في 2005 تحت إشراف صديقنا المشترك على الإدريسي، حلل سالم يفوت الإطار الثقافي للممارسة الفكرية من خلال دراسة حول "المناخ الفكري بالأندلس ودور المالكية في تشكيله"، وقد أظهر في هذه الدراسة معرفته الواسعة بالموضوع وهو العارف بخباياه منذ بحثه المفصل حول ابن حزم.

بعد هذه الدراسات القطاعية، وجه الأستاذ يفوت اهتمامه إلى فرع هام من الأبحاث النقدية حول العلم وهو سوسيولوجيا العلوم، موسعا رؤيته لتشمل البحث عن عناصر التميز والوحدة التي طبعت التقليد العلمي العربي في المرحلة الكلاسيكية. ففي كتاب جماعي أشرفتُ على نشره سنة 2007، كتب سالم يفوت مقالة متميزة عن "مكانة العلم في الثقافة العربية". وهذا الكتاب هو ثمرة لندوة دولية حول موضوع "العلم في المجتمعات الإسلامية: مقاربات تاريخية وآفاق مستقبلية" كنتُ قد أشرفت على تنظيمها بالرباط في أبريل 2004 برعاية مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية.

وقد أصدر الأستاذ يفوت دراسات مماثلة حول نفس الموضوع، منها مقالته في الكتاب الذي نشرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) تحت عنوان "منارات الحضارة العربية"، وهو عبارة عن مجلد أنيق باللغتين العربية والألمانية، صدر بمناسبة المشاركة العربية في معرض فرانكفورت للكتاب. ويهدف الكتاب الذي

شارك فيه عدد من الباحثين العرب إلى إبراز جوانب من الإسهامات التاريخية المشرقة للثقافة العربية في الحضارة الإنسانية، من فلسفة وعلوم وفنون وآداب ومعارف إنسانية. ويتضمن الكتاب مساهمة مهمة للدكتور سالم يفوت تحت عنوان "مكانة العلم في الثقافة العربية،" عمد فيها إلى إبراز مكانة العلم في الثقافة العربية وطابعه العضوي. وتوج الأستاذ يفوت هذا التوجه في أبحاثه باصدار كتاب "مكانة العلم في الثقافة العربية" في 2006 عن دار الطليعة ببيروت.

ويؤكد الباحث في هذه الدراسات حول الجذور الثقافية والاجتماعية للتقليد العلمي العربي في المرحلة الكلاسيكية أن المجتمع والمدينة الإسلامية ساهما في إنتاج العلم. فوراء ازدهار علم الفلك والطب والهندسة والفيزياء والاقتصاد وغيرها لدى المسلمين رغبة علمية واجتماعية عارمة. وأكد أن العلم العربي ترعرع وارتقى استجابة للمشكلات التي تثيرها الممارسة الاجتماعية المادية والثقافية، حيث كانت الحضارة العربية الإسلامية متجهة نحو العمل، وهو ما جعل للعلم العربي طابعه العملي والبراغماتي.

وقد صوب سالم يفوت تفكيره نحو مكانة العلم في الثقافة العربية الإسلامية منطلقا من رؤية بنيوية شاملة لتحديد تلك المكانة، وموظفا مفهوم عضوية العلم في الثقافة الإسلامية الوسيطة، أي اندراجه واندماجه في الانشغالات العملية والمادية للمدينة الإسلامية. ولبيان ذلك الارتباط بين العلم والمدينة الإسلامية، استعرض أمثلة متعددة استقاها من الرياضيات والفلك والطب والميكانيكا والهندسة المدنية.

ويقابل أطروحة العضوية عند الأستاذ يفوت مفهوم كونية العلم العربي. وفي هذا السياق، يوضح أن العلم العربي ساد لقرون عديدة على الساحة العلمية العالمية بعدما استوعب الموروثات العلمية السابقة ذات الأصول المتنافرة، بدءا من بقايا

المرحلة البابلية حتى التراث اليوناني ذو الغنى الباهر. وهذا الطابع الكوني للعلم العربي هو الذي يفسر تأثيره القوي لاحقا على الثقافة اللاتينية حينما نُقِل إلى أوروبا. كما لم تغب عن الباحث الإشارة إلى وضعية العلم في العالم العربي المعاصر. وفي هذا السياق وظف مرة أخرى مفهوم العضوية وبيّن ضرورة تأسيس السياسات التنموية الهادفة إلى تجذير العلم في المجتمعات العربية الراهنة وتأسيس إستراتيجية تنموية مندمجة تعتمد العلم والتكنولوجيا كمكون أساسي من مكوناتها.

يعتبر الأستاذ سالم يفوت أن العلم لم يكن مجرد ترف فكري في الثقافة الإسلامية، بل مكونا لها، ولم يكن العلم العربي الإسلامي فضلة زائدة على المجتمع ولا مجموع إنتاجات نظرية بقيت على هامش الحياة العملية، بل جاء نتيجة حاجيات ملموسة فرضتها الحياة اليومية. غير أن هذا البعد العضوي للممارسة العلمية في العالم العربي الإسلامي لا ينفي عنها بعدها الكوني. فالعلم العربي الإسلامي عالمي بمصادره وكذا بتطوراته وامتداداته. وقد لعبت هذه التعددية دورا أساسيا في تشكل العلم العربي وازدهاره.

المراجع المذكورة

- سالم يفوت: "من منظور تاريخ العلم: إسهام مفكري المغرب والأندلس في تكوين علم الفلك الحديث." *الثقافة المغربية* (الرباط)، العدد 7، 1992: صص. 26–33.
- سالم يفوت: "اسهام مفكري المغرب والأندلس في تكوين علم الفلك الحديث"، *المجلة الفلسفية العربية*، العدد 3، 1994: صص. 49–58.

- سالم يفوت: *نحن والعلم: دراسات في تاريخ علم الفلك بالغرب الإسلامي*، بيروت: دار الطليعة، 1995.
- سالم يفوت (تنسيق)، *دراسات في تاريخ العلوم والإبيستيمولوجيا*، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996، "ندوات ومناظرات 55".
- سالم يفوت: "ابن باجة وعلم الفلك البطليموسي"، في: *دراسات في تاريخ العلوم والإبستيمولوجيا*، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996، صص. 65–73.
- سالم يفوت (تنسيق): *كيف يؤرخ للعلم؟* الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996، "ندوات ومناظرات 58".
- سالم يفوت (تنسيق): *التفسير والتأويل في العلم*، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997، "ندوات ومناظرات 62".
- سالم يفوت: "العائق الإبيستيمولوجي والمعقولية،" في: *العلم: المحلية والكونية*، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2002، "ندوات ومناظرات 98"، صص. 75–80.
- سالم يفوت: "مدخل لقراءة *كتاب اليسارة في تقويم السيارة* لابن البنا المراكشي،" في: *الفكر العلمي في المغرب: العصر الوسيط المتأخر*، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003، "ندوات ومناظرات 104"، صص. 29–38.
- سالم يفوت: "مدخل لقراءة *المدخل إلى صناعة أحكام النجوم* لإبن البنا المراكشي،" في: *العلم والفكر العلمي بالغرب الاسلامي في العصر الوسيط*،

الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003، "ندوات ومناظرات 94"، صص. 133–141.

- سالم يفوت: "التقليد والابتكار في العلم: وجهة نظر توماس كون"، في: *التقليد والتجديد في الفكر العلمي*، 2003 الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، "ندوات ومناظرات 106"، صص. 155–163.
- سالم يفوت (تنسيق): *مفهوم التقدم في العلم*، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2004، "ندوات ومناظرات": 112.
- سالم يفوت: "المكونات الفكرية للفيزياء النسبية: إينشتين ومعاصروه"، في: *العناصر الإبدالية والتيمية والأسلوبية في الفكر العلمي*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، "ندوات ومناظرات 116"، 2004، صص. 11–29.
- سالم يفوت: "المناخ الفكري بالأندلس ودور المالكية في تشكيله"، في: *الاتجاهات الكلامية في الغرب الإسلامي*، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2005، "ندوات ومناظرات 118"، صص. 71–96.
- سالم يفوت: *مكانة العلم في الثقافة العربية*، بيروت: دار الطليعة، 2006.
- سالم يفوت: "مكانة العلم في الثقافة العربية"، في: *العلوم في المجتمعات الإسلامية: مقاربات تاريخية وآفاق مستقبلية*، تحت إشراف محمد أبطوي، الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، 2007، صص. 15–45.